2021

مطرقة الوهم

لا تخدع نفسك !

إعداد / أبو الحسن الحناوى

** خداع النفس **

تعريف

خداع النفس هو توهُّم الإنسان لحقيقة نفسه وإمكانياته وظروفه علي نحوٍ يُخالفُ الواقع ، ولكنْ يتفق مع هواه ورغبته !!

والفردُ بطبيعة الحال لا يكون متعمداً ذلك، بل إنه يقوم بخداع نفسه دون وعي بذلك كأن تكون مثلاً ، إمكاناته العقلية أوالعلمية ضعيفة ولكنه يري عكس ذلك.

وخداعُ النّفس عمليةٌ يقومُ بها الشّخصُ من أجل رفض الأدلة والحُجج المنطقية أو تبرير أهميتها ، أو معارضتها ، أو لإيهام النفس بصحّة ما يفعل.

يقول الفيلسوف الأميركي مايكل نوفاك " لا حدود معروفة لقدرة الإنسان على خداع نفسه" .. أى يتمادى الإنسان في خداع نفسه الى حدود بعيدة وطويلة الأمد.

أمثــلة

فالمدخنون يعرفون أن النيكوتين مُدمرٌ للعديد من وظائف الجسم .. يتلفُ الرئتان ويسببُ سرطانَ اللثة والحُنجرة والمرئ وآثارهُ مدمّرةٌ لشرايين الدَّم ومهددةٌ لخلايا المخِّ وتليُّفِ الكبد ولكنهم يتحايلون بعبارات مثل: «التدخين ليس خطيراً للغاية» أو« كان جدي مُدخناً وعاش للثمانين دون تعب » أو « إنه ليس محرمٌ شرعاً وانما هو مكروهٌ فقط ».

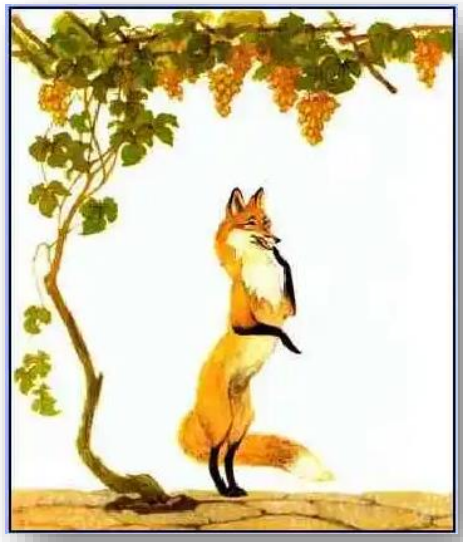

ومثالٌ آخر: « مازالَ العنبُ حصرماً حامضاً لم ينضجْ بعد. » كان هذا ما رددَه الثعلبُ بعد عجزهِ عن الوصولِ لشجرةِ العنبِ ويأسِه من إلتهامِ ثمارِها إثر قفزاتٍ متتاليةٍ دون جدوى ، فعِوضاً عنْ أنْ يعترف بحقيقةِ عجزه ، حاولِ التقليلَ من أهمية العنب ليخفف من حسرته !

ويميلُ معظمُ النّاسِ الى تبريرِ تصرفاتِه حتى لو كانت خاطئةً ، وإتّباعِ نظرية الثعلبِ مع العنب الحصرم الحامض الذى لم ينضج بعد !!
وذلك لأنه يرفض أن يجد نفسه في قفص الاتهام بالفشل أو العجز مهما كان مُقتنعاً داخلياً بخلاف ذلك ، وذلك ما يُسمى في علم النفس بـ " التنافر المعرفي" فهو يعرفُ الحقيقةَ جيداً ولكنَّه يُوهم نفسَه بغيرها فقط ليبرر عجزه وأخطاءه.

ومثال آخر من الواقع .. « يقولُ: ابني يبولُ على نفسِه ـ أكرمكم الله ـ حين يراني » مُتباهياً بذلك أو متفاخراً بأن خوفَ إبنِه منه كبيرٌ وعظيمٌ يصلُ الى حدِّ التبول على نفسه خوفاً منه ..

وهو يُقنعُ نفسه بأنَّ ذلك أسلوبٌ تربويٌ جيدٌ بل ويُريد إقناعَ الآخرين بتلك الكَذبة التي خدعَ بها نفسه!!

وإلا فأين الرحمةُ بالأطفالِ ، وأين علاقةُ الحبِّ والمَودّةِ بين الطفلِ وأبيه وهل سيكونُ مستقبلاً هناك تفاهمٌ وتعاطفٌ بينهما ، ألم يؤثّر ذلك على شعورِ الآخرين مثلُ الأم التى تتألمُ لذلك ، والأخوات الذين يرقبون الأمر بحذر ويتوقعون أن تصيبَهم دائرةٌ من قِبَل أبيهم ؟

بل هناك مشاكلٌ نفسيةٌ أخرى وخطيرة تؤثر في سلوك الأطفال مثل:

- التعثر في نطق الكلام
- والخوف الدائم بدون أسباب
- والإنطوائية وانعدام الثقة بالنفس
- وعدم القدرة على الإبتكار
- والتنازل عن حقهم دون مقابل او سبب

وغير ذلك من الأمراضِ النفسيةِ المُدمِّرةِ لشخصية الطّفل المُتسببة عن عدم الشعور بالأمان والاستقرار العاطفي المتبادل بينه وبين أحد أبويه أو كلاهما ..

وقد يكون ذلك الرجلُ صالحاً في مظهره وصدوقاً ، مؤدياً للصلاة في أوقاتها ولكنَّه خَادعٌ لنفسه في مجالِ تربية أبنائه وربما في مجالاتٍ أخرى في الحياة ، ولكنَّه كما أسلفنا يُبررُ أعماله هذه ليُهادن ضميره.

عن أَبي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قَالَ: قَبَّلَ النَّبِيُّ ﷺ الْحسنَ بنَ عَليٍّ رضي الله عنهما، وَعِنْدَهُ الأَقْرعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ الأَقْرَعُ: " إِنَّ لِي عَشرةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلتُ مِنْهُمْ أَحدًا " ، فنَظَر إِلَيْهِ رسولُ الله ﷺ فقَالَ :

« مَن لا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ » متفقٌ عَلَيهِ.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال:

« إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلا زانه ولا يُنزعُ من شيءٍ إلا شانه.»

✓ وهذا يدل على أهمية هذا الخُلُق وحاجةِ الخَلقِ إليه في سائر شؤونِهم.

كذلك من الأمثلة الشائعة .. ترى الرَّجلَ لا يتركُ سُنّةً من صلاةٍ أو صيامٍ إلاّ وقام بفعلها ولكنّه مُكدرٌ لصفوِ حياةِ زوجه (شريكة حياته) وأقربائه والآخرين خادعاً لنفسه أنه رجلٌ صريحٌ وصارمٌ وجادٌّ !!

ولكنه للأسف يَغفُل حقائقَ وحقوقاً جمَّةً لهؤلاء الذين ينفرون منه مثل:

- إلتماس الأعذار والصفح الجميل
- التّغاضي عن الذّلات والهفوات
- التحلي بالأخلاق الكريمة كالحلم والصبر والرفق بالآخرين
- مراعاة الروابط سواء الزوجية أو الرحم أو القرابة أو الجيرة .. الخ

وغير ذلك من الحقوقِ وآدابِ التعاملِ ، فتجده يبحثُ عن مبرراتٍ هنا وهناك ليريح نفسه من عناء مراجعةِ النّفس وضرورةِ التغيير.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
« إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا ».

وأحياناً .. ترى التّاجر يسعي ليُصلى بالصفِّ الأولِ ولا تفوتُه تكبيرةُ الإحرام .. ولكنّه يُدلّسُ في تعاملِه مع زبائنه وربما يَغلُظ عليهم في القول أو يحلفُ كذباً لتسويقَ بِضاعته ، وهذا لا يتناسب مع ما يقومُ به من المواظبهِ على الصلواتِ بالصفّ الأوَّل وبإنتظام ، وبالتأكيد لديه من المبررات التي يدافع بها عما يفعله بأنها " كذبة بيضاء أو أنه سريع الإنفعال بطبعه" ولكنّه يعلم أنه ليس على صواب وإنّما يخادعُ نفسه.

مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على صبرةِ طعام ، فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللًا .. فقال : ما هذا يا صاحب الطَّعام؟

قال: أصابته السَّماء (المطر) يا رسول الله .. قال: أفلا جعلته فوق الطَّعام كي يراه النَّاس؟ .. « من غشَّ فليس منِّي ».

وقال ﷺ: « اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للكسب »

وقال: « التَّاجرُ الصدوقُ الأمينُ مع النّبيين والصدّيقين والشهداء »

كما أن هناك بعض المِهن التي يشيعُ فيها عدم الإلتزام بالأمانة أو الأخلاق أو الضمير أو كلها مُجتمعة مثل مهنةُ المحاماة ..

تجد أن الخصم الذى جاء للمحامي وهو يعرفُ أن ليس لديه ايَّ حقٍ وربما كان مجرماً جرماً جنائياً ، أو مختلساً لأموالٍ طائلة ، أو غارماً

(مثقلاً بديون) من عدة أشخاصٍ ، فيَعرضُ الأمرَ على هذا المحامي الذى ترى علي جبهته علامةَ الصلاة وتلمحُ بمكتبه لوحةً كبيرةً خلفه مكتوبٌ عليها آيةٌ قرآنية تقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

فما يلبث هذا المحامي إلا أن يقبل القيام بالترافع والدفاع عن هذا المجرم في حق الآخرين وربما يقترح عليه إثبات بعض العبارات أو المواقف الكاذبة ليتسني له كسب قضيته ظلماً وعدواناً ، متجاهلَيْن ما جاء بالآية:

- إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
- وَيَنْهَىٰ عن الْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ

وكلاهما يُخادعُ نفسَه ويبررُ ما يقومُ به ، فالمحامي مثلاً يرى أنّه ذكاءٌ ومهارةٌ في عملِه وأنه أكلُ عَيْشِه ، وأغلب المحامين يقومون بذلك ! والمسكينُ يُخادع نفسه وهو يعلم أن ذلك ظلمٌ وحرامٌ .. وبعيدٌ عن الحق.

يقولُ الله سبحانه: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

ويقول النبي ﷺ :ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله! قال : « الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» ، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت!

وتُثبت الدراسات تلو الأخرى أننا نبررُ قراراتِنا الخاطئة بعد اتخاذها ونحن نعلم الحق .. ولكنّه الخداع المَقيت والمُدمّر لصاحبه.

لا تخدع نفسك

ألم ترى الى المُرتشي وهو يعلمُ حُرمة الرِشوة ومضارّها ولعنة اللهِ على الراشي والمرتشى والرائش ، ولكنّه يُخادع نفسه لزيادة دخله بتبريراتٍ واهيةٍ فيقولُ: دخلى قليلٌ وأعبائى كبيرةٌ ماذا أفعل؟ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: « لعن رسول الله الراشي والمرتشي». وفي رواية والرائش (الوسيط)

لا تخدع نفسك

وهذه المرأة التي تمتنع عن مُضاجعةِ زوجِها لعدة أسابيع أو أشهر وهي تعلمُ حرمةَ ذلك .. مُتعللة ومبررة سوء عملها (بامتناعها عنه) أنها تثأرُ مِنه بطريقتِها التي تستطيعها هي !! والحديثُ الشريفُ يقول: « إذا باتت المرأةُ هاجرةً فراشِ زوجِها لعنتها الملائكةُ حتى تُصبح » متفق عليه من حديث أبي هريرة، وهذا لفظ مسلم وبالطبع على كلٍّ منهما أن يتقي الله ويراعي حدودَه وحُرماته فالأحكامُ لا يُشرّعها الإ الله رب العباد وليس البشر.

لا تخدع نفسك

كما أن من حالاتِ مخادعةِ النّفسِ .. خروجُ الأناثِ مُتعطراتٍ بالطرقات، صابغاتٍ وجوهَهن ، مُرتدياتٍ ملابسَ ملفتةً للنظرِ، حاسراتٍ عن رؤسهن ، وتظن كلٌّ منهنَّ أنَّها قريبة من اللهِ وفي معيته لأنها مُقيمة للصلاةِ بانتظام ومحسنة الى الفقراء وأدّت فريضةَ الحج والحمد لله.

وكأنها إحدى وَليّاتِ الله وتريدُ تسويق ذلك ، مبررة أن الإيمانَ بالقلبِ وليس بالشكلياتِ وهي تعلمُ التناقضَ الحادّ في ذلك لحُرمة ما تفعله وعدم استقامته مع الدين وعدم قبولِ الآخرين لما تقوله .. ولكنها تُخادع نفسها.

قال الله ﷻ: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

وقال رسول الله ﷺ: « أيُّما امرأةٍ استعطرتْ ثُمَّ خَرَجَتْ ، فمرَّتْ علَى قومٍ ليجِدُوا ريَحها فهِيَ زانيةٌ ، وكُلُّ عينٍ زانيةٌ».

وقد أكدت دار الإفتاء المصرية أن الزي الشرعي للمرأةُ المسلمةُ هو:

- " أيُّ زيٍ لا يصفُ مفاتنَ الجسدِ ولا يشف ولا يكشفه ".

وأوضحت الفتوى أن شروط هذا الزي:

- " أن يَستُرُ الجسمَ كلَّه ما عدا الوجه والكفّين مع كونِه غير شفافٍ ولا ضَيّقٍ بحيث يُحَجِّم الجسم "

ومن الأمثلة الصارخة سرقة أحد الأفراد لصندوق تبرعات المسجد .. وهو يعلم أنها سرقة وحرام !

لكنه يخدع نفسه ويبرر فعلته تلك بأنه فقير ومحتاج للنقود .. وبما أن التبرعات توزع منها على الفقراء فهو فقير ، وبما أن المتبرعون يريدون مساعدة المحتاجين من المسلمين فهو أيضاً مسلم وموحد بالله .. إذن لا غضاضة في أخذه اموال التبرع من صندوق المسجد!

وكما تعلمون أن التبرير خاطئ وواهي وهو يعلم بذلك ولكنه يخدع نفسه باستحلال مال الله بالسرقة خفية من بيت الله!

- الدليل: أنه يسرق المال حين خلو المسجد تماماً من الناس.

نختم بواقعٍ مَريرٍ .. وهو ما ذكرناهُ عن الأبِ الفاشلِ في تربية ابنائه على الوجه الصحيح .. فبدلاً من الترهيب والعنف بالضّرب والعِقاب والقهر كان يجبُ توفير الأمان النفسي والشعور بمحبّة الوالد لإبنه والقرب منه وحمايته وتعليمه السلوكيات والأخلاقِ الحسنَةِ واعانته على الإبتكار وتشجيعه على كلِّ ما يُنمّي ذكاءَه وتعاونَه مع زملائه والآخرين.

- هذا النموذج للاسف .. ما هو الإ نسخة من مئات الآلاف من المُدراءِ ورؤساءِ الأقسام بالشركاتِ والهيئاتِ والمصالح الرسميةِ والوزارات وتجده أيضاً برأس الهرم بالجهات الرئاسية والمَلكية.

كلٌّ منهم .. هو حاكم بأمره ، ويُخادعُ نفسه ، ويبررُ لنفسه فشَله الذريع وعجزه وعدم كفاءته إرضاءاً لغروره ..

- ✓ تراه آخذٌ بمصيرِ المؤسسة التي يرأسها من فشلٍ الى فشلٍ
- ✓ ولا يَدرُس جدوى المشاريع التي تقوم بها مؤسسته رُغم أهميتها
- ✓ ولا يعمل بآراءِ مُستشاريه التَّخصصيّن في مجال المشروع
- ✓ ولا يقبلُ نصحَ الخبراءِ الذين سيقومون على تنفيذ المشروع
- ✓ ولا يعترفُ بعجزهِ أو فشلهِ ، لأنَّه يعتبرُ الأخطاء بسبب الآخرين
- ✓ يعمل على ايجادِ كبشِ فداءٍ في حال كانَ الفشلُ ذريعاً ومهولاً
- ✓ يرى في نفسهِ علاّمة زمانِه، يفهم في كل مجالٍ وتخصصٍ
- ✓ دَيْدَنه الدائمُ : " لا أريكُم إلا ما أرى" فالكلمةُ له وحده فقط
- ✓ البطشُ والقهرُ والجبروتُ هي أسلحته المُشهرة ضد منتقديه
- ✓ يقدم نفسه دائما على أنه الحمل الوديع الحاني على رعيته والمُخلّص الأوحد لهم !

كبش الفدا لفشله

والحقيقةُ غير ذلك وإن كانوا يُخادعون الله والذين آمنوا .. فذلك يستحيلُ كما أخبرنا الله عزوجل .. إنما يخدعون أنفسهم فقط ، يقول الله ﷻ :

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۞ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

وجوب التوبة وتجديد الإيمان

لذا لابد لنا أيها الأخوة والأخوات .. من وقفةٍ جادةٍ مع النّفس نُصححُ فيها أوضاعَنا ونُجددُ فيها إيماننا لأن نقصَ الإيمانِ وضعفَه سبباً للتجرؤ على حدود الله وإنتهاج منهج مخادعة النّفس ، كما رَوَى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: » إن الإيمان ليخلقُ (يضعف ويقل) في جوف أحدكم كما يخلق الثوب (يبلى ويصبح قديماً) ، فاسألوا الله أن يُجدّدَ الإيمانَ في قلوبكم«.

وعلينا التناصح فيما بيننا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»

وهذه كلمة تقولها العرب ، وكان عندهم تعصب ينصرون أصحابهم وإن ظلموا ، واشتهر عندهم هذا: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)، فلما قاله النبي ﷺ قالوا :يا رسول الله! كيف أنصره ظالمًا؟ قال:

تحجزه عن الظلم فذلك نصرك إياه

فنصر الظالم معناه: منعه من الظلم وحجزه عن الظلم هذا نصره !

تعينه على نفسه وعلى شيطانه تنصره على شيطانه وعلى هواه الباطل!

أخوكم في الله / أبوالحسن الحنـاوى

فيينا في 12 نوفمبر 2021